

المرأة في كتابات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

أ.عجناك (بشي) يمينة

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الجزائر 2

ملخص:

منذ ظهور جمعية الإصلاح في الجزائر في القرن العشرين، وهي تحاول جاهدة بكل ما توفر لديها من وسائل لبث الصحوة متعددة الجوانب و النهضة الجديدة في المجتمع الجزائري، حيث كانت المرأة الجزائرية تمثل ركيزة أساسية في هذه النهضة الإصلاحية الشاملة.

واهتمت الجمعية الإصلاحية بقضايا المرأة الاجتماعية والثقافية و الدينية، و شغلت حيزا واسعا في كتابات الفكر الإصلاحي التي نشرت في الصحافة الوطنية خلال فترة الاحتلال، وتجلى ذلك الاهتمام واضحا في كتابات كتاب وشعراء الجمعية.

Resume:

Since the emergence of the Reform Society in Algeria in the twentieth century, they try hard, all that is essential to have the means to send a multi-faceted and awakening a new renaissance in Algerian society, where the Algerian women represent a fundamental pillar in this renaissance of comprehensive reform.

Assembly reform and focused on issues of women's social, cultural, religious, and occupied the ample space in the writings of the reform ideas, published in the national press during the occupation period, and demonstrated a clear interest in the writings of authors and poets of the Assembly.



wondershare™

PDF Editor

تمهيد:

لقد كان لميلاد فكرة الإصلاح التي بدأت شمسها تشرق على الجزائر في مطلع هذا القرن، الأثر البالغ في الحياة الفرد الجزائري الذي كان غارقاً في بحر التخلف و الجهل، تحت حكم استعماري جائر. وقد كان لظهور هذه الفكرة قبل⁽¹⁾ وغداة الحرب العالمية الأولى؛ أن قلبت في هذا الوطن المعطيات الدينية التقليدية الجامدة التي كان يمثلها رجال الطريقة المنحرفة، وإقرار عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح الإسلامي في الجزائر نفسه بهذه الحقيقة في قوله: " قبل ظهور الإصلاح لا أحد كان يعتقد أن الإسلام هو شيء آخر غير الطريقة"⁽²⁾...". وقد اتخذ المصلحون من القرآن الكريم والسنة الصحيحة منطلقاً لدعوتهم الإصلاحية، وتمثل هدفهم في العودة بالجزائريين إلى الدين الصحيح سلوكاً وعقيدة، وكان هذا التصور بعد أن نضجت الرؤية وتأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مايو من سنة 1931م بقيادة الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس، وقد كان على عاتق هذه الجمعية الإصلاحية إخراج الأمة مما كانت فيه إلى حياة جديدة. حيث أوضح القانون الأساسي⁽³⁾ لهذه الجمعية أن هدفها هو الإصلاح الديني بمعناه الشامل، كما أقر الفصل الثالث⁽⁴⁾ منه عدم خوضها في المسائل السياسية، لكن المتخصص لسجل هذه الجمعية وقانونها الأساسي بعمق، يدرك ولا يشك أن فلسفة الإصلاح لدى هذه الجماعة كانت برؤية شاملة لكل نواحي الحياة التي تخص الفرد الجزائري.

أولاً- جمعية العلماء و دورها في الإصلاح:

وهذا محمد البشير الإبراهيمي نائب رئيس الجمعية يوضح مجال نشاط هذه الجمعية وأهدافها حيث يقول: "من الغلط أن يقال أن جمعية العلماء جمعية دينية يجب أن ينحصر عملها في الإصلاح الديني، بمعناه الذي عرفه الناس...والحقيقة أن هذه الجمعية تعمل من أول يوم من تكوينها للإصلاح الديني الذي لا يتم إلا بالإصلاح الاجتماعي..⁽⁵⁾".

وقد واجهت هذه الجمعية صعوبات جمة في سبيل تحقيق أهدافها ، وعلى حد تعبير الإبراهيمي:

" فهي التي جمعت الشتات وأحييت الموتى، وحددت المبادئ، كما كان عليها أيضا أن تهدم وتبني، وتربي، وتعلم في آن واحد، وأن تواجه عدة جهات وتحارب الاستعمار والتنجيل في الدين، والضلال في العقائد، كل ذلك مع قلة الأنصار و قلة المال" (6). و جعلت من كتابها و شعرائها (7) وصحفها (8)، منبرا لإيصال أفكارها إلى الناس.

كما أوضحت هذه الجمعية الإصلاحية منذ البداية موقفها إزاء كل القضايا التي تعني المجتمع، والمشاكل التي تعاني منها الجزائر آنذاك، وقد دعت إلى تأسيس جمعيات خيرية لمساعدة المحتاجين والفقراء وانشالهم من أيدي المبشرين وجمعياتهم والتصدي لهم من طرف الكتاب والشعراء بإبراز أهدافهم وخبائهم عبر قصائد ومقالات عديدة، كما تصدرت جمعية الإصلاح لمخططات الاستعمار الثقافي؛ بإنشاء النوادي الثقافية وغيرها، لاستقطاب إمكانات الشباب الفنية والأدبية، ولحمايتهم من الانحرافات الاجتماعية والأخلاقية التي انتشرت في المجتمع بفعل البطالة وال فقر، حيث تعرض لهذه القضايا كتاب وشعراء الجمعية الإصلاحية في كتاباتهم إدراكا ووعيا منهم بدور رسالتهم في المجتمع، بل لم يكتفوا بعرض هذه المشاكل الاجتماعية في كتاباتهم فحسب، بل حاولوا إعطاء بعض الحلول الممكنة لمثل هذه الظواهر أو التخفيف من حدتها، والدعوة إلى العودة إلى الدين الصحيح، وإحياء سيرة السلف الصالح، وإعادة الاعتبار لكل ما يمت بصلة إلى التاريخ الإسلامي المجيد و تراثه.

وإذا تصفحنا كتابات جمعية الإصلاح التي نشرت على صدر صفحتها العديدة والمختلفة، فنجد أنها كانت تصب في اتجاه تحقيق هذه الأهداف والأغراض كلها.

وقد كشف النتاج الشعري لشعراء الإصلاح ومنذ البداية عن أدواء المجتمع التي نقشت فيه، وصور الواقع المزري الذي كان يعيشه الجزائريون بفعل سياسة المستعمر، وفي هذا الإطار يعطي لنا الشاعر أحمد بن الحاج يحي (9) صورة عن واقع هذا المجتمع الجزائري وأصفا الظواهر السلبية التي نقشت فيه داعيا في الوقت نفسه المصلحين للتصدي لمثل هذه الظواهر حيث يقول:

عجا هلاً تصديتم لمحـ ** ق جذور المارقين السفهاء
وعلمتم بالذي تتلونـه ** في كتاب الله صباحا ومساء
فالزنا فاش، وخمر رائجة ** وقمار في جهار وخفاء
وشباب ضائع يأوي إلى ** موضع اللهو إلى دور البغاء
وأيامى ضائعات أمرهـ ** من بلاء فقر، و جوع وعراء
نكبات ، وبلايا جمّة ** ورزايا تدع الطود هباء
كل قلب مؤمن في حسرة ** آسف يقطر حزنا بالدماء (10)

ثانيا - المرأة والإصلاح الاجتماعي:

إلى جانب تصوير الشعر الإصلاحى للظواهر السلبية التي تقشت في المجتمع الجزائري، ظهرت دعوة قوية أيضا- وهذا في إطار نشاط الجمعية دائما- ترمي إلى النهوض بالمرأة الجزائرية، وإخراجها من قبو الجهل والتخلف و الفقر الذي فرضته سياسة المستعمر .

وقد تجلّت هذه الدعوة في كتابات الشعراء والكتّاب الإصلاحيين الذين أدركوا قيمة ومكانة المرأة ودورها الخطير في المجتمع، وفي تنشئة الجيل وتربيته للمستقبل، فراحوا يدعون إلى النهوض بها وتعليمها ويؤكدون على المنافع التي سيجنيها المجتمع من ذلك.

1- المرأة والتعليم:

وهذا مصطفى حلوش في خطبته راح يصف المرأة الجزائرية في هذا المقطع منها قائلا:

"... ومن المؤسف المحزن أن تكون الأم هي المدرسة الأولى جاهلة لا تعلم وناقصة لا تكمل، وآسف من ذلك وأحزن أن يضاف إلى جهلها ونقصانها جهل الرجل ونقصانه فنبقى مدرسة الأسرة عاطلة، لا من ناحية الرجل ولا من ناحية المرأة... لهذا إن أردنا حياة هنيئة وسعادة رضية يجب أن يكون الدين أساسا للتعليم، وأن يشمل الرجل و المرأة على السواء، وأن يكون التطبيق فيه أكثر من النظر..." (11).



wondershare

PDF Editor

وإذا تأملنا جيدا فحوى هذه الخطبة الإصلاحية فإننا ندرك مدى أهمية المرأة المتعلمة في المجتمع أو كما لُقِّبها الكاتب "بمدرسة الأسرة" وأهمية تعليمها يكمن أساسا في طبيعة ونوعية التكوين الذي ستتلقاه، والذي يجب أن ينبني على فلسفة أو رؤية خاصة، وفق منهاج (12) دراسي خاص أيضا، وهو الهدف الأساسي الذي ركز عليه الإمام عبد الحميد ابن باديس في قضية تعليم المرأة. فأعطى له أهمية متميزة حين أنشأ جمعية التربية و التعليم الإسلامية في 1930م، وقد نص مكتب الجمعية صراحة على أن تعليم الفتيات مجاني، وإن كنَّ قادرات أو غير قادرات على دفع المصاريف، تشجعا لهنَّ على الإقبال على الدراسة والمواظبة عليها، كي تتكون منهنَّ المرأة المسلمة المتعلمة (13) وأشدَّ بدور الجمعية في النهوض بالمرأة وتعليمها، واشترط ابن باديس أن يكون تعليم المرأة مقتربا: " بالحشمة، والفضيلة، والعفة، والصيانة..." (14).

حيث وضع ابن باديس قضية تعليم المرأة الجزائرية ضمن سياسة التخطيط الشامل لمحاربة الاستعمار، إدراكا منه لما تمثله هذه المرأة من رمز للمستقبل وللأجيال القادمة، فهي رمز ومصدر روح الشخصية الوطنية التي يجب المحافظة عليها حتى لا يستغلها الاستعمار لصالحه أو يحاول مسخ مقومات شخصيتها، ولتحقيق هذا الهدف فإن أول شيء يجب فعله كما يقول ابن باديس هو:

"إذا أردتم إصلاحها الحقيقي، فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها، قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها... وتعليم البنات تعليما يناسب خلقهن، ودينهن، وقوميتهن، فالجاهلة التي تلد أبناء لامة يعرفونها مثل أمهاتنا - عليهن الرحمة - خير من العالمية التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها... ويوم نسلك هذه الطريق في تعليم المرأة، والطريق السابق في تعليم الرجل سلوكا جديا، نكون بإذن الله قد نهضنا بهما نهضة صحيحة..." (15).

تجدر الإشارة إلى أن ابن باديس نظر إلى قضية تعليم المرأة على أنها مشكلة اجتماعية وحضارية في آن واحد، وأنها تعني الجنسين معا، كما أن هذه المشكلة تهم المجتمع كله الذي يعاني من نفس عوامل الانحطاط والتخلف.

فهذا أبو اليقظان أحد أقطاب الإصلاح في جنوب الجزائر، يصف حال
الجزائر آنئذ قائلاً:

" لقد تسلط على الأمة عوامل ثلاثة لو تسلط عامل واحد منها على أمة كبيرة
لزعزع ركنها، وهـذا بناءها، ألا وهي؛ الجهل، والفقر، والفرقة. فالجهل أفقدها
شعورها بوجودها تذب عنه، والفقر أفقدها عن العمل وشل أعضائها عن
الحركة، والافتراق أذاب قوتها وذهب بريحها، فبقيت والحالة هذه عرضة للتلف
والاضمحلال والهلاك، وهي نتيجة طبيعية لتلك الحالة المحزنة التي جرّ إليها
الظلم، والاستبداد ..."(16).

تلك إذن هي حالة الجزائر التي تفاقمت عليها الأدواء في مطلع هذا القرن؛
والتي عانى منها الرجل والمرأة على حد سواء؛ من مستعمر، وفقر، وجهل،
وانحراف ديني، وأخلاقي، وغيرها من الظواهر السلبية التي تفشت في المجتمع
الجزائري، فكانت نتيجة حتمية لسياسة استعمارية جائرة، تجلت عواقبها الوخيمة
على المجتمع ككل، وعلى المرأة خاصة.

2- المرأة والاستعمار:

كان للحرب العالمية الأولى ولآثارها انعكاسات واضحة على الفرد
الجزائري، فقد زادت من عمق مأساته تحت ظل الاستعمار الجائر الذي شدد
قبضته على أبناء الجزائر، وزجّ بهم عنوة في أتون هذه الحرب الضروس،
وأجبرهم على الاعتراف أمام الملأ بالتطوع (17) والمشاركة فيها.

وكان جزاؤهم منها أن جرّعتهم آلام اليتيم، واليتيم، واليتيم، والغدر من
مستعمر أبى أن يفي بوعدده و منحه إياهم حقهم في الحرية. لكن الجزائريين لم
يسكتوا ولم يهدؤوا؛ بل راحوا يحتجون ويسجلون هذا الموقف المخزي للمستعمر
الذي كان درساً وعبرة لهم، وقد سجل الشاعر محمد السعيد الزاهري لنا هذه
الحادثة التاريخية وآثارها على المجتمع، ومخلفاتها النفسية والاجتماعية على
المرأة الجزائرية من هذه الحرب التي نزعت منها زوجها وابنها وتركها دون

عائل في ظل مستعمر لا يرحم.

wondershare

ويسجل الشاعر آثار هذه الحرب المدمرة على الشعب الجزائري، رغم كل ما بذله من تضحيات من أجل فرنسا لم يلق سوى الإهانة والحرمان من حقوقه المشروعة في قوله:

ولكننا ندعى إذا الحرب شمرت *** نقي أمتنا من عاديّات القنابل
وفي أمتنا ، شباننا وكهولنا *** وكم خلفوا من أمهات ثواكل
إلى أن يقول :

وكم ذا رأيت يا قوم عيني بواكيا *** قضين بكاء بالدموع الهوامل
وكم يتمن أبناءها وبناتها *** وكم أيمت يا قومنا من حلائل
ومن بعد ذا شعبي يسام مهانة *** ويحرم شعبي من حقوق كواقل (18)
إلى جانب معاناتها من ويلات الحرب، وتجربها مرارة الحزن والثكل، فهي تحس بالإهانة في كرامتها لأنها مجبرة على العمل لتعيل أبناءها بعد وفاة زوجها. وتشعر بها وهي تعمل خادمة لدى المعمّر، أو لدى اليهود الذين استوطنوا الجزائر.

وقد سجل الشاعر محمد السعيد الزاهري (1899-1956م) هذا الموقف في قصيدة مطولة تحدّث فيها عن جمال الطبيعة في الجزائر وأحوالها في تلك الفترة من العشرينيات، وقد حزّ في نفسه أن تهان وتراق كرامة الجزائريين، والتي تتضمن كذلك كرامة المرأة الجزائرية من قبل الأجنبي الدخيل، الذي جعل منها خادمة تسهر على راحته بأجر زهيد. هذا الموقف الذي أثار غضبه وحميته جعله يواجهه غيره من الرجال بأسلوب خطابي مباشر، مثيرا فيهم مشاعر الرجولة للثورة على هذا الوضع، والانتقام من المستعمر لاسترداد كرامة هذه المرأة المهدورة إذ يقول في تساؤل واستنكار شديدين:

هل في الجزائر من يرد على *** الجزائر ما مضى من عزة وفخار؟
صار اليهود اليوم لم يستخدموا *** في الدور غير بناتنا الأبكّار
من بعد ما كانوا عبيد جدونا *** من قبل قرن وسط هذي الدار
بني الجزائر لا أرى في هذه *** أبدا لنا عذرا من الأعدار
أفتصبرون على انتهاك حماكم *** من بعد ما كنتم عزيزي الجار ؟

أم كنتم ما فيكم من غيرة *** تحمي الحرائر من أذى وشنار؟ (19)

وقد استرعت هذه الظاهرة السلبية انتباه الشاعر الإصلاحي الذي كان يسعى دوماً إلى إصلاح المجتمع من الآفاق التي تضربه وبسمعته. ولم يكتف المستعمر وأعوانه باتخاذ المرأة الجزائرية خادمة (20) ذليلة له فحسب؛ بل حاول النيل من شرفها مثلما تجسده لنا قصة "الفتاة الجزائرية المغتصبة" للشاعر محمد الهادي السنوسي الزاهري (1902-1974) أو كما أطلق عليها "مأساة وريدة"، فهي حقا تمثل مأساة المرأة الجزائرية ومعاناتها من اضطهاد المستعمر ووحشيته التي لا تعرف حدود الكرامة والإنسانية.

تدور أحداث هذه القصة حول فتاة جزائرية تدعى "وريدة" وهي في سن الثالثة عشر، حيث اختطفها طبيب فرنسي وهي بالقرب من منزلها وسافر بها إلى فرنسا، ورغم استجداد خالتها "بعدالة" فرنسا لكن دون جدوى. تأثر الشاعر بهذه الحادثة، واهتزت مشاعره للظلم الذي لحق بهذه الفتاة وخالتها أيضاً، والتي لم تجد إلى جانبها سنداً يعينها على المصيبة التي حلت بها. وسرد لنا الشاعر أحداث هذه القصة في أسلوب مباشر وقصصي إذ يقول:

شَدَّ مَا تَلْقَاهُ مِنْ وَقْدِ الضُّلُوعِ

طِفْلةً فِي مَسْتَهْلِكِ الْعُمُرِ

سَامَهَا فِظٌ مِنَ الْعُلْجِ خَلِيعِ

شَقْوَةُ الْأَسْرِ، وَسُوءِ الْمَنْكَرِ (21).

ويسترسل الشاعر في وصف ضعف هذه البنت وهي مأسورة، مكسورة الجناح، لا حول لها ولا قوة في غربتها، إذ لم تجد سوى دموعها تروّح عنها قائلاً:

فَاسْتَوَتْ وَاقِفَةً تَذْرِي الدَّمُوعَ

وَضَعِيفَ الْحَوْلِ، بِالْأَدْمُوعِ حَرَّ

لَمْ يَوْثُرْ فِيهِ مَرَأَهَا الْمَرِيعِ

لَا يُولَا غَرْبَتَهَا فِي الْمَهْجَرِ (22)



wondershare™

PDF Editor

ثم ينتقل الشاعر إلى إعطائنا صورة أخرى عن الحالة النفسية لخالتها، وما انتابها من حيرة وقلق وسط ليل بهيم. من خلال هذا الوصف نحس بتعاطف الشاعر مع هذه الخالة و الطفلة الضائعة باستنكار لهذا الظلم، واستنهاض للرأي العام حتى يثور لهذه الفتاة لتسترجع كرامتها، وهو هدف الشاعر الإصلاحي بالدرجة الأولى وهذا في وصفه المباشر قائلا:

هجم الليل على خالتها *** وسواد الليل بالويل نذير
يحمل الرزء إلى حجرتها *** ليس ما يحمل بالأمر اليسير
ذهب الغاصب و الناس هجوع
بالتى منك كعقد الجوهر

راعها الليل واصماها الخبر *** وكلا الاثنين ذو أمر خطير
كم لشعبي فيها من معتبر *** ولو درى الأمر، لنادى بالنفير
أيها الشعب فهلا تعتبر *** سبة " تبقى بقاء ابني سمير" (23)
نستشف هنا مدى ظلم المستعمر للمرأة الجزائرية و إهانته لكرامتها، إلا أن صوت الشاعر الإصلاحي يرتفع منددا ومدافعا عنها، هذه النبيرة الإصلاحية و الخطابية التي نلاحظها قوية في النص الشعري وواضحة في الكثير من الأحيان؛ تنزل من قمة وجماليات النص الشعري إلى مستوى النثرية رغم محاولة الشاعر إدخال بعض العناصر الفنية على النص، كالأسلوب القصصي، وتنويعه للأوزان والقوافي. فقد جاء النص الشعري على شكل موشح، إلا أن الروح الوعظية والنبيرة الخطابية الطاغية على القصة أفقدتها كثيرا من جماليات النص القصصي الشعري وحوّلتها إلى مجرد نص خطابي مباشر جدا، لإيصال الفكرة المسيطرة على الشاعر بالدرجة الأولى. ونلاحظ هذا بوضوح خاصة في نهاية النص، حيث يتحول الشاعر إلى خطيب على المنبر حين يدعو إلى إنقاذ شرف هذه البنت التي تمثل شرف الجزائريين عامة وهذا في قوله:

أنقذوا الغادة، والخود الشموع *** تنقذوا الأعراض من ذا الوضر (24)

ويواصل الشاعر الإصلاحي مسجلا اضطهاد المستعمر للمرأة الجزائرية في مختلف الحوادث التي جرت في الجزائر، حيث لا يفوت الشاعر محمد العيد

حوادث 8 ماي 1945م، التي ما تزال حوادثها الدامية تثير الآلام والشجون في نفس كل جزائري فينقل لنا الشاعر هذه الحوادث عبر إحساسه الخاص قائلا:
أأكنتم وجدتي، أو أهدى إحساسي *** (وثامن ماي) جرحه ماله آسي ؟
ثم يستطرد الشاعر في وصف حال بشاعة أخلاق المستعمر، في معاملته الوحشية اللاإنسانية للمرأة الجزائرية قائلا:

وغيد من البيض الحسان أوانس *** تهان على أيدي أردال أنكاس
ويسلين من حلي لهن مرصع *** بكل كريم من جمان وألماس
وينكن في عرض لهن مطهر *** مصون الحواشي طيب العرف كالأس
فيا لك من خطب تعذر وصفه *** فلم تجر أقلام به فوق أطراس⁽²⁵⁾
ويتساءل الربيع بوشامة متعجبا كيف يدعي هؤلاء الحضارة و التمدن، وهم يتصرفون مع الغير كالوحوش الضارية التي تفتك بهذا الشعب، أطفالا، وشيوخا، ونساء. لكن بالرغم من كل هذه الظروف فالشاعر الإصلاحى يضمّن في خطابه وعيدا لهذا الطاغية، نستشف من خلاله الإرهاص الثوري في الشعر الجزائري الذي سيغير الأحداث وهذا في قوله:

عجبا كيف يدعى العلم و التمدن *** ين قوم عاشوا على القتال ؟
واستباحوا غصب الحقوق جهارا *** من ضعاف رهن الشقا اعزال
وأراقوا طهر العفاف أفسارا *** من بنات، ومن ذوات الحجال
لم يلب من قلوبهم ضعف شيب *** أوبكا نسوة، ولا أطفال
قل لطاغ مستهتر أبعد النجعة *** خلف الأكام داء الليالي
لا تظنوا الدهر الذي قد جفانا *** سوف يبقى معكم على خير حال⁽²⁶⁾
وفي قصيدة أخرى للشاعر نفسه، يتخذ من مناسبة (عيد الأم) موضوعا للحديث عن حال الأم الجزائرية وعن حقوقها في ظل الاستعمار، لكنه لا يكتفى بوصف الحال وإنما يدعو لإعادة الاعتبار لها، والتي يجب أن تتمتع كغيرها بحقوق الأمومة و الإنسانية، إلا أن الشاعر يورد هذه المعاني بلغة باهتة في قوله:
من للأمومة في حمانا إنها *** متاعه نيرانها لا تخمد

منكوبة في أسدها وعرينها *** ولهى يذوب لما عراها الجليد
من ذا يكفكف دمعها ودماءها *** ويذيقها طعم السلو، ويسعد ؟
حسب الأمومة من دخيل رحمة *** أرض (معمرة) وولد أعبد (27)
ولإبراز مدى بؤس الأمومة الجزائرية يعطي لنا الشاعر صورة أخرى مقابلة
لصورة أمومة المستعمر المشرقة التي ترعى حقوقها وكرامتها، حيث يقارن بين
الصورتين حتى ندرك الفرق والتباين الواضح بينهما، وكأن الأمومة ليست
واحدة عند البشر والإنسانية جمعاء؟! وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

تلك الأمومة عند قوم تعبد *** يا ليتها فينا ترى ما يسعد!
جعلوا لها عيداً أغر مقدساً *** يعلى به تذكراها ويمجد
.... إلى أن يقول مقارناً بينها وبين أم الدخيل:

وجفوا أمومة بئس مستضعف *** نضو القيود، فؤاده متبدد
واستخروها دون رحمى، وازدروا *** لهفاتها الحرى بلظى تصعد
وسقوا عواطفها اللطاف قوارصاً *** كالمهل تغلي في النفوس وتكمد
ورموا بها في المهلكات ومثلوا *** بحياتها، وهي الملاك الأسعد
أم الدخيل مصونة ترعى، وأم *** بني الحمى مزرى بها لا ترفد
تلكم بغير أمومة مرعية *** يا للشقاء، و الهون، كم ذا نفرد؟! (28)
وقد يكون للفقر المدقع تحت حكم مستعمر جائر مدعاة لانحراف المرأة بشتى
معانيه واتجاهاته،

وهذا ما ركز عليه كتّاب وشعراء الإصلاح، و دعوا إلى التصدي له بكل
الوسائل.

3- المرأة و الفقر:

لقد كان للظروف الصعبة التي مرت بها الجزائر تحت الحكم
الاستعماري ولنتائج الحربين العالميتين الأثر الواضح على الحالة الاقتصادية
والاجتماعية، والتي انعكست بدورها على حياة المواطن الجزائري، فأصبحت
حياة بائسة. وبفعل تضافر هذه العوامل برزت ظاهرة البؤس الاجتماعي،

وانتشر الفقر والمجاعة، وتدهور الحالة الصحية للمواطن، إذ وجدت الأمراض الخبيثة مجالا للانتشار وحصد الآلاف من أرواح الأهالي. ورغم طلب الوالي العام للجزائر مساعدة من النيابات المالية لتخصيص ميزانية لإعانة النساء المسلمات الفقيرات أثناء الوضع، إلا أن طلبه رفض بأغلبية الأصوات. تولد من هذا الوضع الصعب غلاء في المعيشة⁽²⁹⁾ وانخفاض في الأجور، وانتشار للبطالة، وافتقاد للمواد الغذائية، فاضطر الأهالي إلى أكل الأعشاب، وشرب المياه العفنة كما يقول أحد المؤرخين⁽³⁰⁾. كما أفرزت هذه الوضعية اكتظاظ الشوارع بالمسولين، وكثرة الأطفال المشردين، وتراحمهم للاقتيات من صناديق المزابل ونفضات الموائد⁽³¹⁾.

خيم الفقر المدقع كالكبوس الرهيب على أنحاء البلاد، مما فتح المجال لهجرة الأيدي العاملة إلى فرنسا. وقد بلغت الفاقة والاحتياج بالمرأة حدا أن جعلها تعمل خادمة في المنازل الأوروبية أو الإسرائيلية⁽³²⁾. وانعكست هذه الظاهرة السلبية الاجتماعية في الشعر الإصلاحي، من خلال قصائد تتحدث عن الفقر والفقراء والدعوة لإعانتهم والإحسان إليهم، في أسلوب تغلب عليه نبرة الحزن والأسى، مما طبع هذه النصوص بطابع الرثاء والتشاؤم. ومن بين الشعراء الذين اهتموا بقضية معاناة المرأة الجزائرية من الفقر والحرمان وسجلوا أثر هذه الظاهرة على حياة المرأة؛ الشاعر محمد العيد آل خليفة المهتم بقضايا المجتمع، خصوصا قضايا المرأة في قصائد عديدة وفي مجالات مختلفة.

فها هو ومنذ شبابه يسجل ويتأمل النكبات التي ألمت بالجزائريين في العشرينيات قائلا في قصيدته "أسطر الكون":

وأقرأ من آي الشقاوة أسطرا *** على صفحات الكون مرتسفات

فسطر عيايل أمضتهم الطوى *** عراة على لفح الأثير حفاة

وسطر أيامي بصطرخن توجعا *** من البؤس لا يفتأن مكتنبات⁽³³⁾

وإذا كان محمد العيد قد نبّه إلى ظاهرة البؤس والفقر التي اصطلى بها الجميع من نساء وأطفال، فإن الشاعر محي الدين قدور الحلوي⁽³⁴⁾ راح يبحث عن أسباب هذه الظاهرة ويوجه أصبع الاتهام في قصيدته "إلى النواب لوم

وعتاب "هؤلاء النواب الذين أهملوا حقوق الشعب، ولم يسترجعوا حقوق الأمة التي ضاعت لدى المستعمر، وزاد من ذلك اشتداد الجفاف، ونفاد الزاد لدى الناس، وتراكم ديونهم لدى المستعمر التي يجب دفعها في حينها أو يعاقبون عليها سجنًا. يورد لنا الشاعر هذه الأفكار و المعاني في قوله مستكراً:

ليت شعري هل علمتم *** وطأة الأزمة فينا
زادها الجذب اشتدادا *** طحطح القوم تبينا
هل طلبتم ليتامى *** أنفدوا الزاد معيناً
وطلبتم من حماة الـ *** غاب عنا أن تلينا
ينفع المضطر منّا *** غرمة الحتم سجيناً (35)

وبعد وصف الشاعر الأزمة عامة ينتقل إلى معاناة المرأة، إذ يحاول استجواب هذه المرأة وتصوير الأزمة وأثرها على المرأة وأطفالها وذلك من خلال جو الحوار الذي أدى وظيفته الفنية في إبراز هذه الصور المأساوية، إلا أن صوت الشاعر يبقى المسيطر على الموقف الإصلاحي وذلك من خلال نبرة الوعظ و الإرشاد والأسلوب المباشر في إيصال الفكرة إلى القارئ وهذا في قوله:

وترى الغادة حسرى *** تكسر الصلاد المتينا
ربّ طفل حملته *** أن من جوع انينا
قد طواه البرد حتى *** تحسب الطفل جنينا
فهي أسرى حسرات *** ترسل الصوت أنينا
قلت من شدة برح *** عذب القلب الحزينا
يا فتاة العرب ماذا *** من رزايا تشكينا
فأجابت بلسان *** ينثر الدر الثميناً
إنّ قومي غدروني *** أم ترى الدهر الضنينا
لم أجد منهم طبيباً *** بيرئ الداء الدقينا
ويصون العرض مني *** ويقى الطفل المهينا (36)

Wondershare™

ومن خلال أسلوب الحوار الذي استخدمه الشاعر لإيصال فكرته الإصلاحية، نستنتج من كلامه أن ظاهرة البؤس و الفقر تعود أيضا إلى إهمال النواب و الحكام للفقراء والمعوزين، وأن وعودهم لهؤلاء ما هي إلا وعود كاذبة لا أساس لها في أرض الواقع، ولا يمكن أن يعول عليهم في حل هذه الأزمة، ونستشف ذلك من خلال الحسرة الشديدة في قول المرأة، ومن خلال نبرة السخرية في أسلوب الشاعر، و استخدامه لبعض الصيغ التي لا تفيد سوى للتسويق بالمستقبل الموعود.

قلت: فالنواب قالوا *** سوف نؤوي المعوزينا

ونداوى الجرح منكم *** ونعزّ المستكيننا

بسمت عنها، وقالت *** ويحهم من مدّعينا

باحماة الحي أحيوا *** مجدنا كي يستبيننا (37)

أما الشاعر محمد العيد؛ فينظر لظاهرة الفقر وأثرها على المرأة والمجتمع ككل بمنظار ديني وأخلاقي، إذ يرجع السبب في انتشار مثل هذه الظاهرة أي الفقر في المجتمع الجزائري إلى عدم إتباعهم ما نص عليه الدين الإسلامي في هذا الموضوع وابتعادهم عن سيرة السلف و الأجداد، حتى أفرزت هذه الظاهرة ظواهر سلبية أخرى- في نظر الشاعر- من بينها؛ اضطرار المرأة إلى الخروج للبحث عن العمل، وقد تبدل مقابله حتى أعزّ الأشياء لدى المرأة لتعيل صغارها، ولا يسكت الشاعر الإصلاحى في مثل هذه المواقف بل يقف ثائرا، ساخطا، مؤنبا، ومثيرا لغيرة الرجال على شرف المرأة الجزائرية المُداس. ويدعوهم إلى العمل بالدين وبسيرة السلف الأوائل حتى تزول مثل هذه الظواهر السلبية في المجتمع.

وقد عبّر الشاعر عن هذه المعاني بلغة قاموسية عادية، وجاءت في أسلوب تقريرى مباشر تطغى عليه نبرة الوعظ والإرشاد، وهذا في قصيدته "هيهات يخزي المسلمون" إذ يقول:

هيهات يخزي المسلمون ودينهم *** علم الخلود يظلل الاقطارا

كل الأراضي في النعيم رضية *** إلا الجزائر فهي تصلى النارا

وتتأزح الإخوان هذا بالأذى *** يسطو، وذلك يريد التئارا
والفقر فاش، فالنساء سوافر *** يكحن في طلب المعاش حيارى
يبذلن حتى العرض في تحصيله *** ليقتن ابناء لهن صغارا
يا للرجال لحرمة مهتوكة *** افشاعرون أم الرجال سكارى؟
أجدانكم خطوا لكم خطط العلا *** ما بالكم لم تفتنقوا الأثارا (38)

ولا تنتهي المسألة عند هذا الحد بالنسبة إلى محمد العيد، بل نجده في قصيدة
"أيها الرافعون القصور" وفي السنة ذاتها يوجه الخطاب هذه المرة إلى الأغنياء،
من خلال الحفل الذي أقامته الجمعية الخيرية التي تحاول مساعدة هذه الطبقة
التي تعاني الفاقة والاحتياج. فالشاعر الإصلاحى لا يفوت هذه المناسبة لدعوة
الجميع خاصة الأغنياء منهم إلى التعاون على البر، والتقوى، بأسلوب فيه كثير
من الاستعطاف، والحث على الرأفة بالفقير وصلة الرحم وغيرها من المعاني
التي جاءت في القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة.

نجد أن هذه الصور الاجتماعية الواقعية محل تركيز دائم من الشاعر، لأنها
هي التي تؤثر في النفوس وتثير المشاعر الإنسانية.

ومن هذه الصور؛ نجد أن الشاعر محمد العيد ينقل لنا صورة واقعية لأرملة
خانتها الأقدار تجوب الطرقات ذليلة بطفلها الجائع الباكي لا تستطيع أن تفعل له
شيئا، فتستغيث بالمارة طالبة منهم الرحمة والعون لهذا الصغير، هذا المشهد
ينقله الشاعر بأسلوب يثير الحزن والأسى، واصفا هذا الموقف المؤثر على لسان
المرأة قائلا:

شكا الطفل حر الطوى واستغاث *** وطافت به أمه حائرة
وتنادى العموم: ألا من يقوم *** بنا وأدوم له شاكرا
ألا من يجير فؤاد الصغير *** ويسكن لوعته النائرة
نقول: إرحموا ذلتي ي أرجال *** أعزوا كرامتي الصاغرة
صلوا رحما صد عنها البنون *** ولم تبق نفس لها ذاكرة (39)

لا شك أن مثل هذه الصورة الواقعية المؤثرة تعصر القلوب الرحيمة، وتحقق
الهدف الإصلاحى المنشود منها. فنجد أن الشاعر محمد العيد من أكثر الشعراء

الإصلاحيين اهتماما بهذه الظاهرة؛ فقصائده الكثيرة مثل: "أسطر الكون"، و"هيهات يخزي المسلمون"، "أيها الرافعون القصور"، و"في ظلال الخير" وغيرها من القصائد، كلها يهتم بهذه الفئات البائسة من المجتمع رجالا ونساء، ويمكن اعتبارها سجلا واقعيا لما كان يعاني منه المجتمع الجزائري من مشاكل تحت ظل الاستعمار.

إن ظاهرة الفقر ظلت محل اهتمام الشعراء الإصلاحيين، ومن بين النصوص الشعرية التي سجلت لنا هذه الظاهرة قبيل اندلاع الثورة التي قامت من أجل القضاء على حياة البؤس وأسبابه نجد؛ قصيدة الشاعر علي صادق نساخ، التي عنوانها "منظر شقاء في ليلة ليلاء"، والتي نورد هنا كدليل على استمرار هذه الظاهرة التي ظلت تعاني منها المرأة الجزائرية، هذه القصيدة تروي قصة امرأة تتسول مع أطفالها في الشارع في فصل الشتاء القارس، إذ يصف الشاعر هذه المرأة مع أبنائها وهم يتضورون جوعا في ليلة راعدة، وكأن هذه الطبيعة ثائرة غاضبة لحالهم، ولأن الشاعر حاول أن يؤثر فينا ويجعلنا نحس بهذه المشاركة الوجدانية بين حال الطبيعة وحال هؤلاء البؤساء الضعفاء من خلال أسلوب الإيحاء والتصوير، وفي ذلك يقول الشاعر واصفا مشهد هؤلاء البؤساء وهم يلتحفون جنح الليل والبرد القارس:

البرق قد أبدى بريقا والرعود لها دوى
والز مهرير كأنه أفعى تفح وتلتوى
فأجلت طرفي برهة، و القلب مني يكتوى
ولمحت شخصا عن ذي الزخارف ينزوي
تحت الظلام فلا يبين
إلى أن يقول

شاهدت جسما عاريا إلا من الثوب الخريق
كالورس أصفر ذابلا من شدة البؤس المحيق
يحنو على أطفاله، و النحر في دمع غريق
ولمحت منه بسمه تفقر حر الشهيق

وجميعهم يتضوَّرون
أم يجاوز سنّها العشرين تلتحف الظلام
من حولها الأطفال دمعهم تحدر في انسجام
من وطأة الفقر الشديد ،ومن بلايا العظام
قد غاب والدهم ،وخلفهم يعانون السقام
إذ غاله ربيب المنون (40)

وبعد هذا الوصف الخارجي للمشهد، حاول الشاعر أن يتعرف أكثر على هذه العائلة بإجراء حوار، لكننا لا نحس بحرارة التعاطف مع هذه الأم وأطفالها من خلال هذا الحوار المفتعل أو الفاتر الذي لا يغوص في عمق مشكلة هذه الأسرة المشردة، إذ بقي وصفه لها خارجيا فقط، وربما هذا هو السبب الذي جعل أسلوب الحوار ضعيفا وغير مقنع. وشخصية المرأة هنا تغطي عليها فكرة الشاعر الوعظية مما يجعلها شخصية غير متميزة عن شخصية الشاعر، بل هي شخصية واحدة غلب عليها الخطاب الإصلاحى الذي من خلاله كان الشاعر ينتقد الطبقة الغنية من المجتمع بلغة تقريرية واضحة على لسان المرأة:

قالت وقد عجبت لقولي في هدوء واتزان..
ماذا تفيد، وأنت فرد لا يساعدك الزمان
إنّا كثير في البرايا قد أصبنا بالهوان
لكن أرباب الثراء على الأرائك في أمان
بمصائبنا لا يشعرون

أين المروءة فيكم أقفرت منها النفوس، إلى أن يقول:

يا من يبيت منعما في حاته متقلبا
هلا التفت إلى البئيس فقد شكا وتعبا
هلا رحمت فؤاده، ووقيته ما أتعبا
أم كان قلبك كالجماد فرحت تطلب ملعبا

وتركته رهين الشجون
اغتم حياتك بالتفاتك للمعنى و الفقير

ذد عن جميع البائسين كوارث الدهر العسير
إن رمت في الأخرى المفازة والنجاة من السعير
ولنعم أجبر المحسنين (41)

خاتمة:

من خلال هذه الكتابات الشعرية التي عكست ظاهرة المرأة و الفقر ومعالجة أسبابها ومظاهرها، يتبين لنا أن الشاعر الإصلاحي كان على وعي بما يجري في المجتمع، وكانت كتاباته بمثابة رسالة إصلاحية بالدرجة الأولى: أي أنه لم يكن يكتفي برصد الظواهر السلبية في المجتمع فحسب، بل كان يحاول البحث عن حلول لها. فكان الشاعر الإصلاحي يدعو إلى التكافل الاجتماعي الذي هو من شأن المجتمع الإسلامي الكفيل بحل هذه المعضلة، بالتأكيد على بعض الصور والمعاني التي وردت في القرآن الكريم و السنة الصحيحة: على أن للفقر نصيب وحق من مال الغني، حتى لا ينشأ بينهما الحقد والبغضاء، ويسود التآخي، وحفاظا أيضا على كرامة وأخلاق المرأة المسلمة، حتى لا يكون الفقر المدقع تحت حكم المستعمر الجائر مدعاة لانحراف المرأة، وهذا ما نبه إليه الشاعر الإصلاحي ودعا المجتمع إلى إيجاد حل له.

وبهذا؛ يتضح أن كتابات الشعراء والكتاب الإصلاحيين عالجت قضايا المرأة الجزائرية بروية إصلاحية شاملة، متخذة من المناسبات الوطنية و الدينية وسيلة لطرح و معالجة انعكاس سياسة الاستعمار على وضعية المرأة في المجتمع الجزائري خلال فترة الاحتلال: من فقر، وجهل، وتخلف عام. كما يبدو التركيز في هذه الكتابات على الرؤية الإصلاحية واضحة وبارزا، مرتكزة أساسا على الدين الإسلامي في معالجة قضايا المرأة المطروحة آنئذ في المجتمع الجزائري، تحقيقا للهدف الإصلاحي الشامل لبلوغ الغاية التي سطرتها الجمعية الإصلاحية من خلال كتابات شعرائها وكتّابها.



wondershare™

PDF Editor

المصادر والمراجع:

- 1-Ali Merad, 1967, Le Reformisme Musulman En Algerie (1925-1940), Paris, P9.
- 2-Ali Merad, Op Cit, P58.
- 3- سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي طبع في قسنطينة، 1937م.
- 4- محمد الطاهر فضلاء، دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، 1984م، ط1، دار البعث قسنطينة، ص69-95.
- 5- البشير الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، 1978م، ط 1، "ش.و.ن.ت. الجزائر"، ص215.
- 6- المرجع نفسه.
- 7- د. أبو القاسم سعد الله، محمد العيد رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، 1961م، "دار المعارف مصر"، ص21.
- 8- د. محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، 1980م، "ش.و.ن.ت".
- 9- أحمد بن الحاج يحيى، من شعراء الإصلاح في منطقة وادي ميزاب، نشر إنتاجه في عدة جرائد منها: جريدة وادي ميزاب، والأمة، والمغرب والنور، وغيرها من الصحف الإصلاحية.
- 10- أحمد بن الحاج يحيى، "مناسبة احتفال جمعية الحياة"، جريدة الأمة، العدد 147 بتاريخ 21 ديسمبر 1937م، ص3.
- 11- مصطفى خلوش، خطبة الشيخ مصطفى خلوش، "سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، ص193-194.
- 12- د. تركي رابح، الشيخ عبد الحميد ابن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، "ش.و.ن.ت. الجزائر"، (د.ت)، ص329-335.
- 13- المرجع نفسه، ص333.
- 14- ينظر: مقال ابن باديس في مجلة الشهاب، ج8، م7، أوت 1931م، ص531-532.
- 15- عبد الحميد ابن باديس، الرجل المسلم الجزائري، الشهاب ج، 10م: 5 نوفمبر 1929م، ص9-10.

- 16- أبو اليقظان، شعور الأمة نائم فماذا ينبيهه؟، جريدة وادي ميزاب، العدد 42،
21-07-1927م، ص3.
- 17- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار البلدية، 1963م، ص330.
- 18- د. صالح خرفي، شعراء من الجزائر، معهد الدراسات الأدبية، 1969م،
ص89-90.
- 19- محمد السعيد الزاهري، جريدة النجاح، العدد 303، 4-6-1926م، ص7.
- 20- توفيق المدني، هذه هي الجزائر، دار الاتحاد العربي للطباعة، (د.ت.)،
ص187.
- 21- محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، مطبعة
النهضة، تونس، 1927م، ص191.
- 22- المصدر نفسه، ص191.
- 23- نفسه، ص195.
- 24- نفسه، ص195.
- 25- محمد العيد آل خليفة، الديوان، مطبعة دار البعث، قسنطينة،
1967م، ص325-326.
- 26- الربيع بوشامة، ليت شعري ماذا جنته زواوة؟، جريدة البصائر، العدد 97،
5-11-1949م، ص7.
- 27- الربيع بوشامة، "يا أم أنت كريمة موصولة"، جريدة البصائر، العدد 193، 9-
06-1952م، ص7.
- 28- المصدر نفسه، ص7.
- 29- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار البلدية، 1963م، ص130-135.
- 30- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945م، الجزء
الثالث، طبعة معهد البحوث والدراسات العربية، 1975م، ص205.
- 31- أبو يعلى الزواوي، جماعة المسلمين، مطبعة الإرادة، (د.ت.)، ص56.
- 32- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار البلدية، 1963م، ص339.
- 33- محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص10.



wondershare™

PDF Editor

- 34- محي الدين قدور الحلوي، شاعر ومعلم من دعاة الإصلاح والتجديد، نشرت له قصائد عديدة في جرائد الجمعية.
- 35- محي الدين قدور الحلوي، "إلى النواب لوم وعتاب"، جريدة المرصاد، العدد 18، "3-6-1932 م"، ص3.
- 36- المصدر نفسه، ص3.
- 37- نفسه، ص3.
- 38- محمد العيد آل خليفة، الديوان، القصيدة نشرت في مجلة الشهاب أول مرة في ج3، م:10، 1934م، ص112.
- 39- محمد العيد آل خليفة، الديوان، القصيدة نشرت في مجلة الشهاب أول مرة في ج5، م:1، أبريل 1934م، ص250.
- 40- علي صادق نساخ، "منظر شقا في ليلة ليلاء"، جريدة البصائر، العدد 219، "27-02-1953م"، ص5.
- 41- المصدر نفسه.



wondershare™

PDF Editor